مع فقيد العربية الاب الكرملي

جزيرة الرجال

وجزيرة النساء

في يوم اشتد حره من أيام شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٢ غصت قاعة المحاضرات في كلية آداب بالقدس ، بما لا يقل عن ثلاثمائة مستمع من سيدات ورجال ، جاءوا لاستماع محاضرة عنوانها « جزيرة الرجال وجزيرة النساء » يلقيها فقيد العربية المرحوم العلامة الأب انستاس ماري الكرملي . ولما أزفت الساعة المعينة بدأ المحاضرة بقوله :

« قرأت منذ ثلاثين سنة في كتاب نخبة الدهر لشيخ الربوة الدمشقي أن هناك جزيرتين لا يقطن إحداهما إلا الرجال ولا يسكن الأخرى إلا النساء . . . وأنا أعتبر شيخ الربوة من أدق الجغرافيين الإسلاميين . ولم يؤثر عنه أنه مزج الحقيقة بالخيال ، أو خلط الوهم بالصحيح . ولا بد وأن يكون لهذا النبأ أساس كبير من الصحة . وقد ظلت هذه القضية أفكاري . واتصلت بأهل العلم من شرقيين ومستشرقين . في خلال هذه الثلاثين من السنين فبعضهم جعلها في بحر الظلمات ، وآخرون ذهبوا بها الى بلاد الدعارك ، وغيرهم وضعوها في الأوقيانوس الهندي . . . إلى غير ذلك من الأمكنة والبقاع . ولكني لم أرتح لرأي أي واحد منهم . لأن الشروط التي يجب أن تتوفر في تعيين هاتين الجزيرتين لم تتوفر في رأي أي واحد من هؤلاء العلماء الأجلاء . وأهمها :

١ — أن تكون الجزيرتان متقابلتين :

٢ — وبجوار بحر الأوخيل :

٣ — قريتين من بلاد الصقالبة :

٤ — وتقابلهما كنوكبة التي سكنها أماريتوس . . . » ثم أخذ رحمه الله يذكر وصف المعيشة في تينك الجزيرتين ، وكيف أنه كان يسمح في فصل الربيع بالتقاء الرجال والنساء في

خروجهم للصيد في عرض البحر ، وهناك يتلاقحون . وشرح كيف كان يتم التلاقح ، بحيث أن بعض السيدات الحاضرات أخذن يتبادلن الابتسامات التي تدل على الخجل . وبعد ساعة من بدء المحاضرة أخذ العرق يتصبب من أجسام المستمعين ، فنام بعضهم وخرج معظم السيدات الى فناء الكلية . وبعد مرور الساعة الثانية لم يبق في القاعة أكثر من ربع المستمعين ، فشكر المحاضر الكريم بالموقف وأنهى المحاضرة بلباقة . وطلب أن يكون البحث في المحاضرة في المقصورة ، حيث يتناول الشاي . ولما نهض تبعه كل من كان يهمه الموضوع . وغصت المقصورة بهم . ولم يبق لي مكان أجلس فيه . ولئن لم يساعدني ظرف المكان على الاشتراك في البحث ، فقد ساعدني القلم . فكتبت إليه هذا الكتاب[1]

سيدي العلامة قدس الأب الكرملي الأجل :

السلام عليكم .

وبعد فقد أسعدني الحظ بأن أكون من مستمعي محاضرتكم الممتعة التي تفضلتم بإلقائها في نادي نواصاطه الزاهر بالقدس ، عن جزيرة الرجال وجزيرة النساء . ويعلم الله أنني توانيت إلى مشاهدتكم والاستماع إليكم بعد أن قرأت لكم كثيراً فكنت ألتهم كل ما تقولون التهام الجياع كل ما في القصاع . ولقد أكبرت فيكم هذه الاناة والصبر على البحث والجلد المتواصل على معاناة الدرس الجاف ، حتى يخرج البحث من فلك سائغاً للقارئين ، وسهلاً على السامعين . ولكن هذا لا يمنعني من إبداء رأي بسيط في الموضوع ، بعد تأكدي من أن صدرك الرحب سيتسع لما أقول . وأن آذانكم ستسمع ما أعرض عليها ، وقد سمعت ووعيت الشيء الكثير من الآراء التي تعرض عليها ، ولو كانت جافة وجفة .

إرتحت إلى جعل جبل آثوس — الذي في بلاد اليونان ، ويقرب من شبه الجزيرة في شكله ووضعه — إرتحت إلى جعله جزيرة الرجال . . ولكن يا سيدي الفاضل أستبعد كل محاولة لايجاد جزيرة النساء ، سواء في بحر الظلمات أو في بلاد الدنمارك أو في الأوقيانوس الهندي . كل هذه المحاولات كانت مستهجنة عندي . وعلى الأخص ما دار منها حول جعل

(١) المدرسة الاميركية : بيت لحم ١٠ — ٨ — ١٩٣٢

الجزيرتين « كوريا » و« موريا » جزيرتي الرجال والنساء ، وقلب أو ابدال أو مسخ السقاطرة سكان جزيرة سقطرا المجاورة للجزيرتين — إلى سقاطرة ، ثم الى سقالبة . هذا شيء بعيد الاحتمال . وعندي رأي آخر لأن أعرضه عليكم وهو :

في أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد اضطرب المهاجرون الاخائيون والوريون — أحفاد اليونان — في أثناء رحيلهم من الشمال الى الجنوب ، بأمم تسكن بلاد كبدوكية . وكان كل المحاربين من النساء . وقد أطلقوا على هذه النسوة المحاربات اسم « الأمازونات » . وبعد ازدهار الفن الاغريقي خلد اليونان أمجاد أسلافهم القدماء ، فرسموا صور هذه المعارك مع الأمازونات على آنيتهم الفخارية الجميلة ، وحفروا هذه المشاهد على نواويسهم الرخامية والحجرية بعناية من الدقة والمهارة . وفي متحف القدس صورة هذا المشهد محفورة على ناووس رخامي وجد في سواحل هذه البلاد .

ولكن ما عسى أن تكون هذه النساء المحاربات ، وإلى أي قوم ينتسبن ؟

يجيبنا على ذلك الأستاذ « ميرز » المؤرخ الانكليزي ، فيقول : إن نتيجة أبحاثه الأثرية ثبت لديه أن الحيتاس (الحثيين) هم سكان كبدوكية القدماء . وقد كان من عادتهم حلق اللحى والشوارب . فرآهم اليونان القدماء في حروبهم معهم كأنهم نساء . ثم زالت هذه العادة بعد احتكاك الحيتاس بالمهاجرين . ولما بعد العهد بين المظهرين — الحلق والاطلاق — ونسي الاحفاد ما شاهد الأجداد ، من أربعة قرون ، خلد هوميروس مفاخر اليونان القدماء في إلياذته . ومن جملة ما ذكر حروبهم مع النساء الأمازونات . ونقل الخبر عنه هيرودتس . وعن هيرودتس أخذ بطليوس . وما أكثر ما أخذ العرب في الجغرافية عن بطليوس .

أستنتج من كل ما سبق أن جزيرة النساء التي وردت في كتاب عجائب الربوة ، وغيره من كتب الجغرافيين الاسلاميين ، هي شبه جزيرة آسيا الصغرى — أو قسم منها — التي كانت تعرف بكبدوكية — وهي قريبة من بلاد السقالبة — السلاف — وكان يسكنها الحيتاس ، أو الأمازونات التي حرّفت الى إماريدوس . وهي قريبة من بحر الأوخبيل ، ومقابلة الجزيرة للرجال — جبل آتوس — ولا يضيرنا أن يكون المكان فيها جزيرة ،

فان العرب قالوا : جزيرة العرب ، وجزيرة الاندلس ، في حين أن كلاً منهما شبه جزيرة .

ومن هذا يتضح أن هذا الافتراض يزيل من الطريق كثيراً من العقبات التي اعترضت السبل في البحث .

هذا ما خطر لي أن أكتبه إليكم الآن على عجل ، آملاً أن يصلكم وأنتم في فلسطين ، عسى أن يكون فيه شيء يرتاح اليه الضمير ويقبله البحث . يذكم الله بعزم من عنده لتبقوا ذخراً للعرب والعربية والسلام عليكم .

ثم تلقيت منه هذا الجواب الذي أحتفظ به الى الآن :

حيفا في ١٧ / ٨ / ٣٢

كنت على جناح ركوب السيارة . وإذا راهب من كلية الفرنسيين صاحب كتابكم فلم أستطع الاجابة عنه ، لذهابي الى الناصرة ومنها الى هنا .

لا يخلو تأويلكم من بعض الصحة . ولا جرم أننا اذا استطعنا أن نؤول الجزيرتين بما هو أقرب الى مألوف ما نفهمه من معنى الجزيرة ، ومن معنى الرجال والنساء ، من غير أن تتطلب التخريجات والتأويلات تكون أقرب الى الصحة . وعلى كل حال اني إذا عدت الى هذا البحث أذكر رأيكم وأنسبه اليكم . ولكن يبقى ذلك تأويلاً للأمازونات ، لا تأويل جزيرة الرجال وجزيرة النساء . وتأويل الأمازونات راجع الى عالم واحد — لا الى جماعة من العلماء . وأنا أقر بفضلكم العميم . وأشكركم على ما أفضتم به من رأي وحفظكم الله

الأب انستاس ماري الكرملي

ومن ذلك التاريخ أخذت اهتم بهذا الموضوع لأسباب كثيرة منها محاولة اثبات اجتهادي ، وتلبية لطلب المحاضر الكريم الذي رجا فيه من كل مستمع أن يواصله بما يجد له في هذا البحث ، ومن أهمها أن شمس الدين شيخ حطين أو شيخ الربوة الدمشقي قضى شطراً كبيراً من عمره في سند وفيها كتب كثيراً من كتبه ، وفيها توفي ودفن في بارستانها سنة ٧٢٥ هـ كما يذكر معاصره صلاح الدين الصفدي في مخطوطة الثمينة «الغور في الغور» وكنت أهم بارسال هذه المعلومات لقدس الأب الكريم ، حتى فوجئت بنعيه . فأحببت نشر البحث بكامله ، لعلّ فيه بعض الفائدة .

في الحرب الكونية الثانية جاست الجيوش ، يرافقها الصحفيون والعلماء ، خلال ديار مهجورة ، وكتبوا عنها الشيء الكثير . فقد كتب صحافي أميركي ما يأتي عن جبل آثوس :

يقع جبل آثوس في الشمال الشرقي من بلاد اليونان وقد مدّ رأسه في بحر الأرخبيل ، وعلا عنه ثلاثة آلاف قدم .

وكان الاغريق يقولون أنه مسكن آلهتهم القديمة . ومنذ القرن التاسع الميلادي بدأت الأديرة النصرانية تحتل محل تلك البوذائية الوثنية . وقد وصل عددها في القرن الثالث عشر مئتي دير . أما الآن فعددها لا يتجاوز العشرين ديراً . وكل دير منها قائم على بعد غير قليل من الآخر . ومن هذه الأديرة ما بني على حافة هاوية رهيبة ، يرى الواقف من فوقها البحر هادئاً تحته . وهذه الأديرة زاخرة بأقدم الكتب المزينة بأجمل النقوش والمحافظة بأثمن التحف وكلها من تراث البوزنطيين ويمتاز دير « سيموبيترا » الروسي بتحفه الرائعة من العهد القيصري .

يسكن هذه الأديرة ستة آلاف راهب . ولهم امتيازات من العهد العثماني . ولما انفصل اليونان عن العثمانيين في أوائل القرن التاسع عشر حاولت حكومتهم الجديدة العبث بهذه الامتيازات . فلم تستطع .

أقمت في سالونيك ثلاثة أيام حتى حصلت على الاذن بدخول منطقة جبل آثوس . سافرت في باخرة — اعتادت السفر إلى تلك المنطقة مرة في الأسبوع . وأول ما قابلني حرس الرهبان الذين مهمتهم أن يراقبوا الحدود خوفاً من دخول الذئاب أو النساء . ومنذ اتخذت هذه المنطقة مقراً للرهبان لم تطأها قدم امرأة ، سوى البرابث ملكة رومانيا ، التي منح لها أن تزورها وتقيم فيها خمس عشرة دقيقة . ولا يمكن بصورة من الصور أن تستطيع امرأة ، مهما تخفت الدخول إلى ذلك المكان — فالرقابة شديدة والتفتيش دقيق . وقد حاولت صحفيات كثيرات ذلك . فأخفقن . ولا يمنع النساء وحدهن دخول هذا الجبل ، بل حظر ذلك على أناث الحيوان والطير كذلك ، فلا تقبل فيه الناقة ولا الفرس ولا البقرة وحتى أن بعض الأديرة تمانع في دخول الدجاجة . ويقدم للضيف « الراكير » والقهوة التركية وعصير البرتقال . وعند غروب الشمس تقفل أبواب الأديرة ، ويتفرغ الرهبان لقيام الليل . وهم يصلون قبيل عيد الفصح صلاة تستغرق اثنتي عشرة ساعة .

وكتبت مجلة لندر Lirtner عن جزيرة النساء :

في سنة ١٩٤٤ . نزلت القوات البريطانية في جزيرة لامينوس ، من جزر الدوديكانيز الواقعة عند مدخل الدردنيل ، وهذه الجزيرة غريبة في تاريخها ، وقد عرفت في التاريخ باسم جزيرة النساء . وتقول إحدى خرافات اليونان أن نساء هذه الجزيرة ثرن على أزواجهن وقررن التخلص منهم . فذبحن جميع الرجال في الجزيرة ، بحيث لم يبق غير النساء

محمود الطاهري